المبحث الثالث

نشأته وسبب تسميته

المطلب الأول: أسباب نشأة التصوف وانتشاره

مما تقدم من حكاية التسلسل التاريخي الذي مر به التصوف تبين لنا أنَّ نشأة التصوف وانتشاره يرجع لعاملين مهمين هما:

➤ **أولاً**: البذخ الدنيوي والإسراف في الملذات والشهوات الجسدية، والذي خرج عن حد الاعتدال الأمر الذي حدى ببعض من أنكرت نفوسهم هذا النوع من السلوك، ولم يستطيعوا أن يقاوموا ذلك التيار الجارف أن يعتزلوا تلك المجتمعات، ويفروا بأنفسهم متخذين لمسلك الزهد والتقليل من المباحات والحرص على أصناف التعبدات طريقاً سلوكياً لهم، وقد استشفوا من بعض النصوص الشرعية دليلاً لهم على مسلكهم هذا كحديث «البذاذة من الإيمان»[1]، وقوله ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولخرجتم في الصعدات تجأرون»[2].

➤ **ثانياً**: المؤثرات الخارجية عن طريق التأثر بأفكار الأمم الأخرى من يونان وهنود ويهود ونصارى وسواهم عن طريق من دخل في التصوف من فلاسفة وغيرهم.

وإن كان التصوف في أول أمره لم يكن كذلك، ومن هذا المنطلق اختلف الباحثون في التصوف هل نشأته أمر طبيعي فيكون بسبب مؤثرات في داخل

---

(١) سنن الترمذي الزهد: ٢٣١٢، سنن ابن ماجه الزهد: ٤١٩٠، مسند أحمد بن حنبل: ١٧٣/٥.

(٢) سنن أبو داود الترجل: ٤١٦١، سنن ابن ماجه الزهد: ٤١١٨.

جسم الأمة كالمؤثر الأول أو بمؤثر خارجي أجنبي عن دين الأمة وثقافتها، ومال كل قوم إلى أحد المؤثرين إلا أنَّ الدراسة الجادة تدل على اجتماع المؤثر الداخلي والخارجي في تكوين الفكر الصوفي على شكله الذي انتهى إليه، وهو ما نميل إليه، ونرجحه، ومما يؤيد ذلك أنَّ لعموم الفرق التي انشقت في جسم الأمة أو عنها يرى أنّها تبدأ بمؤثرات سهلة غالباً مؤثرات داخلية نتيجة ردود فعل في المجتمع ثم بعد ذلك يزيد انحرافها عن طريق المؤثرات الخارجية والتي تجد في هذا الانحراف طريقاً لتثبيت أفكارها في نفوس هؤلاء المنحرفين.

ويمكن التماس عدة أسباب أخرى أثرت في انتشار الصوفية:

➤ **أولاً**: استعمال الخارق للعادة كطريق من طرق إثبات الولاية والصلاح مما يجذب العامة، وكذا فقد كثر في رجال التصوف السحرة والدجالون والمشعوذون ومن يستعين بالجن والشياطين مما يجعل التصوف من أعظم الطرق لنشر الخرافة والوثنية بين المسلمين(١).

➤ **ثانياً**: استعمالهم الرقص والغناء وغيرهما من المنكرات مما يغري كثيراً من الفساق بصحبتهم والانخراط في ما هم عليه من سلوكيات كصحبة المردان.

➤ **ثالثاً**: استعمالهم الأساليب الباطنية من إخفاء الأسرار، وعدم كشفها إلا لمن سلك طريقهم بدعوى أنَّ غيرهم لا يمكنه استيعابها ولا فهمها بل ربما حملها مالا تحمل بحسب دعواهم.

➤ **رابعاً**: التساهل في التمسك بالشرائع الإسلامية مما يغري المتساهلين والمحبين للهروب من سلطان الشريعة أن ينتسب إليهم حتى يهرب من عهدة

---

(١) ينظر: الصوفية معتقداً ومسلكاً: ١٢٥، الكشف عن حقيقة الصوفية: ٧٥٧-٧٧١، هذه الصوفية: ١٦٨.

التكليف بدعوى اهتمامهم بالباطن دون الظاهر والمعمول في الشريعة كما يدعون على الباطن فقط.

➢ **خامساً**: خداعهم للعامة بلبس المرقعات وإظهار الزهادة في الدنيا وملذاتها وادعاء الدعاوى العريضة في محبة الله والرضا بالقضاء والقدر والصبر على البلاء.

➢ **سادساً**: الجانب الإعلامي الذي يقوم به الصوفية عن طريق الألقاب والألعاب المتنوعة على أنفسهم وسلوكيات مذهبهم.

هذه الأسباب وغيرها مما أثرت في سلوكيات وانتشار التصوف ولعل القارئ يجد أنَّ هذه الأسباب والمؤثرات جعلت من انتشار هذه الطرق أحد أسباب تشتت الأمة، ولكن هناك جوانب مشرقة وأسباب أخرى جعلت للتصوف أنصاراً ومريدين متمسّكين بحبل الله ونشر العلم والشريعة وخاصة عند علماء أفنوا حياتهم خدمة لهذا الدين نُسكاً وتعبداً وقرباً من الله وبعداً عن السلطان.

المطلب الثاني: مصدر التسمية بالتصوف والصوفية

التصوف لم يكن هذا اللفظ معروفاً بين السلف الصالح ولا سيما في القرون الثلاثة المفضلة وهي عصر الصحابة ﷺ والتابعين رحمهم الله وتابعيهم بإحسان اختلف الناس في منشأ هذه التسمية ومصدرها الذي ترجع إليه ومم اشتقت وذلك على أقوال[1]:

القول الأول: أنها نسبة لأهل الصفة، واعترض عليه بأنه لو كان كذلك لكانت النسبة اللغوية له صُفِّي بضم الصاد وتشديد الفاء مكسورة بعدها ياء النسبة.

---

(١) الصوفية والفقراء لشيخ الإسلام: ١١- ١٢، مختصر الفتاوى المصرية: ٥٦٧- ٥٦٨.

القول الثاني: أنها نسبة إلى الصف المقدم بين يدي الله. ورد أن النسبة له لغة لو كان كذلك صَفِّي بفتح الصاد بعدها فاء مشددة مكسورة بعدها ياء النسب.

القول الثالث: أنها نسبة للصفوة من الخلق. وهو فاسد؛ لأنه لو كان الأمر كذلك لكانت النسبة إليه لغة صَفَوِيّ بصاد وبعدها فاء مفتوحين بعدها واو مكسورة ثم ياء مشددة للنسبة.

القول الرابع: نسبة إلى صوفة بن بشر بن أد بن طابخة قبيلة من العرب كانوا يجاورون بمكة من الزمن القديم ينسب إليهم النساك قال شيخ الإسلام: «وهذا وإن كان موافقاً للنسب من جهة اللفظ فإنَّه ضعيف أيضاً، لأنَّ هؤلاء غير مشهورين ولا معروفين عند أكثر النساك؛ ولأنَّه لو نسب النساك إلى هؤلاء لكان هذا النسب في زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم أولى، ولأنَّ غالب من تكلم باسم الصوفي لا يعرف هذه القبيلة ولا يرضى أن يكون مضافاً إلى قبيلة في الجاهلية ولا وجود لها في الإسلام»[1].

فتحصل من هذا أنَّ هذا القول مردود من خمسة وجوه:

- **الوجه الأول**: كونهم غير معروفين ولا مشهورين بين النساك.
- **الوجه الثاني**: أنَّه لو كانت هذه النسبة مشهورة لكانت شهرتها في زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان أولى من شهرتها فيمن بعدهم.
- **الوجه الثالث**: أنَّ من تسّمى بهذا الاسم وهو الصوفية لا يعرف هذه القبيلة.
- **الوجه الرابع**: أنَّه لو قُدِّر فسمعت الصوفية بها فإنَّهم لا يرضون أن يُنسبوا لاسم جاهلي لا وجود له في دين الإسلام.

---

(١) مجموع الفتاوى: ١١/٦.

➢ **الوجه الخامس**: أنَّهم لو رضوا التَسّمي بهذا الاسم الجاهلي لما سلم لهم، ولا قبل منهم، لأنَّه نسبة إلى غير الإسلام والله ﷻ يقول: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩] وبذا يعلم حرمة التسمي باسم لم يَقرُّه الإسلام أو يكون منه.

والقول الخامس: أنّها نسبة إلى الصِّفَة بتشديد الصاد مع كسرها، وفتح الفاء بعدها. ومصدرها معنى هو الاتصاف بالصفات الجميلة الحسنة[1]، وهو فاسد؛ لأنَّ النسبة اللغوية والحالة هذه وَصْفِي بواو مفتوحة وسكون الصاد كسر الفاء بعدها ياء النسب.

القول السادس: يرى الكاتب النصراني جرجي زيدان أنَّ كلمة صوفي هي: الكلمة اليونانية (سوفيا) بمعنى الحكمة، وقد ردّ ذلك المستشرق (نولدكه) إنَّ سيجما اليوناني حرف يمثل في العصور المتأخرة بحرف السين العربي في جميع ما عرب من كلمات يونانية لا بحرف الصاد) كما فعل جرجي زيدان مما يدل على عدم علمه بهذا الأمر، ورد هذا بأنّا نقول: في فيلسوفياً فلسفة لا فلصفة، ولو كان هذا صحيحاً لَعُرِفَ وانتشر لكنّ الأمر ليس كذلك فلا يعلمه من لا يعرف العربية فضلاً عن كفره[2].

القول السابع: أنَّه مشتق من لبس الصوف، وهو الذي رجّحه شيخ الإسلام كما أنَّه موافق للفظ من جهة الاشتقاق اللغوي، وصحيح النسبة إليه، ومما يدل على ذلك ما رواه أبو الشيخ الأصفهاني بإسناده عن محمد بن سيرين أنَّه بلغه أنَّ قوماً يفضلون لباس الصوف فقال: إنَّ قوماً يتخيرون الصوف

---

(١) ينظر: الصوفية معتقداً ومسلكاً: ١٢٦.

(٢) أنواع الكشف عن حقيقة الصوفية: ٧٤٠.

يقولون أنَّهم متشبهون بالمسيح ابن مريم، وهدى نبينا أحب إلينا، وكان النبي ﷺ يلبس القطن وغيره أو كلاماً نحو هذا[1]، وهذا يدل على أنَّ صحة النسب لهذا المعنى لم يخرجه عن مخالفة الشريعة لمخالفته لهديه ﷺ في لباسه لعدم التزامه لبس الصوف، ونحن متعبدون باتباع هديه ﷺ لا باتباع هدي عيسى عليه السلام؛ لأنَّ هديه أكمل الهُدى، كما قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ﴾ [الفتح: ٢٨].

(١) مجموع الفتاوى: ٧/١١.